عُني ببنائه بنو الرشيد فيه الجوامع المحكمة الصنع والدور الفخيمة والاسواق المنظمة والساحات الرحبة وهناك قصر الامير الواسع الارجاء الشاهق البنيان . اما عدد اهل الحائل فيقدَّرون بخمسة عشر الف نفس وللامير حاشية خاصة لحراسته واشغاله يبلغ عددها الالف

لما استولى الوهابيون على جبل شمّر في اوائل القرن التاسع عشر استفادوا من غنى الحائل ووفرة ارزاقها الى ان حمل المصريون على نجد فاستقلَّ اهلها بالامر وفوَّضوا بمقاليد حكمهم الى اسرة شريفة شهيرة عندهم ببني علي فتولَّت تدبيرهم ردحاً من الدهر ثم جنح اصحابها الى العسف وساروا فيهم بالظلم واحيوا معالم الجور فثقل نيرهم على الاهلين وحاولوا خلعهم (له تابع)

الحقوق البدوية في شرقي الاردن

بقلم حضرة الخوري بولس سلمان الروم الملكي الكاثوليكي (تابع)

٣ في البيت

ان العرب لهم منازل عديدة يسكنون فيها فمنها ما هو حجري ومنها ما هو شعري فالبيوت الحجرية البدوية وان كانت مشيدة بالحجارة فهي دون نظام وترتيب مقسَّمة الى مواضع عديدة . فيها يجلسون ويتسامرون فيها يأكلون وينامون فيها يربطون دوابَّهم ويحفظون ماشيتهم فيها يخزنون مؤونتهم . ولا يتصوَّرنَّ الطالع انَّ البيت الحجري هو مجموع حجر كثيرة كبيوت المدن الزاهرة بل هو حُجرة كبيرة تُستخدم لكل ما ذكرناه . وسنصف البيت الحجري في بحث آخر . والبيت الشعري هو الخيمة بل مسكن العرب الظاعنين في القفار . فالبيت الحقير مهما فيه من قليل الاثاث له اكرام عظيم . أجل انَّ لهذا النسيج المرتفع على اعمدة سوداء القائم في ارض جرداء منزلةً كبرى وشأناً رفيعاً . لأن من اهان البيت فقد اهان اصحابهُ النازلين فيه

لا بل اهان العشيرة كلها . ولذلك قد جعلوا له حقوقاً يعرفها القضاة ويجرون عليها . فانَّ الاكرام والاعتبار لا يؤدّيان للبيت لما فيه من وفرة الاقسام وغناها او لحسن النسيج وزخرف اثاثه بل لاصحابه . لان الخيمة يصنعها العرب من وبر الإبل او شعر الماعز فلا اعتبار لها بحدّ ذاتها . فانَّ اكرام البيت يعود الى الاعراب الذين يسكنون فيه كما قال لي احد الاعراب : « انا نحن الاعراب نمتاز عن ارباب المدن لاننا ندافع عن كل من اهان بيوتنا حالة كون اهل الحضر لا يهتمّون بهذه الوطنية الشريفة . لان الخيم هي وطننا في البادية ومحلّ آبائنا وورثناها عنهم فنحامي عنها لانها وديعة ثمينة . ومن يتعدّى على البيت وارباب ينال جزاء تعدّيه من الاهانة والعذاب » . ودونكم وصف ذلك

بينما العرب جالسون في شتّ الرجال يتلذّذون بشرب القهوة المرّة اذا بضيف قد ورد عليهم . فانه يمرّ من وراء الخيم كي لا يلقي بنظره الى الحريم او محلّ النساء في الخيمة فينزل عن مطيّته ويربطها باحد الاوتاد او الاطناب ثم يدخل الى المجلس وفي يده محجانهُ وعلى كتفه بندقيّتهُ . فيحيّي الحاضرين وينتظر قليلاً من الزمان حتى يُعدّ له محلّ المجاوس فيه فيسرعون ويأتون بفراش ناعم ويمدّونه ثم يقولون له : علم الى هنا » تعال وكوّع » . (والتكويع هو انه يضع كوعهُ على المسند ويتّكئ) فينحرون الجزور اكراماً للضيف ويصلحون منه طعاماً للحاضرين . فيصبح البيت مكرّماً مكرّماً . ويضطرّ الضيف الى ان يحترم المنزل وكلّ من فيه . ويلتزم كلّ من في المحلّة او خارجاً عنها ان يكرم البيت والضيف . فلا ريب ان تلك العادة شريفة حتى اذا خرج الضيف من عندهم يمدحهم ويثني على آدابهم . والعرب كما بيناه يحافظون على شرفهم ويخشون من الطاعنين بهم والعاذلين لهم

بيد ان الإهانة هي التي تكسر شرف البيت . لانه كثيراً ما يحدث ان بدويين من الحضور بعد حديث مديد ومجادلة طويلة يتّصلان الى السبّات والشتائم او رفع الاسلحة في البيت . فهذا الامر يُعدّ « كسر شرف » لصاحب البيت فالبيت يطلب حقّهُ . وربّما يصير ان عدوّاً للضيف يقدم فيضربهُ او يهينهُ . فتلك الاهانة تعود على صاحب البيت وعلى الضيف فالبيت يطلب حقّهُ . ولقد يجري احياناً ان رجلاً سفيهاً يهين ربّ البيت بكلام سافل فالمهين يلتزم بردّ الشرف المفقود والقيام

بحق البيت . لان الاعراب يزعمون ان من ازدرى بالبيت واحتقره فقد صنع ذلك ليس فقط نحو الاحياء بل نحو الاموات والاجداد . وهم يقيمون اكراماً واجلالاً عظيمين لاجدادهم الذين نهجوا لهم سبيل البادية وعلّموهم السكنى فيها

وإهانة البيت لا ترفع الا بطريقتين : فالاولى امام القاضي البدوي او احد الوجوه والشيوخ . فاذا رفعت الدعوى الى احد الوجوه فتلقاه بالحب والسلام واذا اتصلت الى القاضي يطلب زرقة ثلاثين ريالاً فيدفعها المجرم رغماً عنه ثم يحاكم امام المجلس كما وصفناه سابقاً . فينتصب المدّعي وهو صاحب البيت في وسط الجماعة ويقول : « ويش بك يا قاضي العرب ياحامي النسب بفلان اليّ (الذي) كسر شرفي بقوله كذا وكذا واهانني في عشيرتي وبحضور جماعتي واهان ضيفي فودّي منك ان يبيض الوجه » . وبياض الوجه عند العرب الخاليين يقوم باعادة الشرف المفقود . والبيضاء هي الراية الكبيرة يصنعونها من نسيج ابيض ويرفعونها على الرمح اكراما لصانع الخير . ولقد يرفعونها في الحروب حينما يهجم الاقوياء على الضعفاء فيرفع الضعفاء الراية البيضاء ويسلّمون انفسهم لاعدائهم وذلك دلالة على المسالمة والمهادنة . وفي الغزوات الهيبة حينما لا يقدر الاذلاّء على مقاومة الابطال يرفعون الراية البيضاء . وحينما يصنع احد الاعراب صنيعاً يُذكر فيشكر كالذي يخلّص قريبَهُ من الموت يرفعون له راية بيضاء ويطوفون بها حول الخيم وهم يقولون : « راية فلان بيّض الله وجهه »

غير ان الضيف الطلق اللسان يحتج عن نفسه فيقول : « يا قاضينا يا قاضي العرب اذكر الله . المحلّ الذي نزلتُ فيه هو بيت رفيع وصاحب البيت الشيخ فلان اكرم ضيوفه خير اكرام ونال الاهانة والشتائم من فلان » . ثم يمدح صاحب البيت على كرمه وجوده ويعدّد مناقبه الحميدة ويسترحمه بأن لا يترك البيت في درجات الذلّ والهوان . فتارة يستشهد على صحة كلامه بآية من آيات القرآن واخرى يورد مثلاً دارجاً وحيناً يأتي بحكاية او نادرة تؤثر في عقول الحاضرين . ثم ترد الشهود وتشهد على صاحب مُدّعاه . فينتصب القاضي ويقول : « انا من عندي ومن عند القضاة الذين قبلي فلان كسر شرف البيت واهان صاحبه وضيفه » فيأمره بدفع عشرين ناقة وخمسين نعجة . فيقول المجرم : « انا مستعدّ لامر القاضي . امرك يا قاضينا فوق الراس » .

ويلزمه بان يدفع للضيف ثلاثين ريالاً فعلى المجرم ان يقول دائماً : « نعم انا مستعد » وبعد ذلك يقوم احد الشيوخ ويقول لرب البيت : « حقك على العين والراس ولكن من شأن الشيخ فلان دَعْ له خمس نياق » فيقول : « من شأن خاطرك وخاطر السامعين تركت ما تريد » . ثم ينتصب شيخ آخر ويقول : « ياشيخ فلان اترك له من شأن الجماعة ومن شان والدّيك كذا وكذا » فيقول : « قد تركتُ ما طابت » وهكذا يصبح المطلوب سهلاً وخفيفاً

على ان البدوي لا يدع مثل هذه الدعاوي تتصل بالمحاكم بل يصلح ذات البين بالقليل وذلك بان المجرم يقوم نحو المهان ويقبل لحيته ويقول : « بالله عليك وبدُرّة والدّيك تنسى ما جرى مني والله ما هي نيّة سيئة مني بل سَكْرة الفكر وطغيان العقل هذا ما جرى مني » . فيقبّله من لحيته أو من شاربيه ويصفح عنه . ومنهم من يدفع كل ما يطلبون ولا يخفض منه درهما . واليكم الحادثة الآتية : كان سالم العازمي في خيمة عودة ابي نايه اذ هجم عليه حامد الشراري واطلق رصاصة عليه فلم تصبه بأذى حينئذٍ امتطى الشيخ عودة مطيّته الى مضرب كاسب الحاوي شيخ الشرارات وقال : « بَيّض وجهي ياكاسب الحاوي » . قال : « خير ان شاء الله » قال : « ما في الّا الخير . هجم حامد الشراري على ضيفي سالم العازمي واطلق عليه الرصاص » . قال : « قد اصلحت الامر يا شيخ عودة خذ لك ولضيفك اربعين ناقة وفرساً رسيناً وامضِ في سبيلك » . فانطلق امير الحويطات مسروراً واستوفى حقّه . ولو ابى الصلح لكان عودة ابو نايه اشهر عليه حرباً عواناً

٤ ـ الوجه

الوجه عند العرب وفي هذا المقام هو الكفيل الموكل بجرائم يثقل عليه تحريقات من فعل خير او اتقاء شرّ فان البدو ان اذا ارادوا ان يصنعوا امراً عظيماً لا يقدرون عليه او يخشون منه عاقبة وخيمة او فديعة عمدوا الى رجل شريف طاعن في السن فيقولون له : « يا فلان كن وجهاً عليّ في الامر الفلاني » . والوجه لا يخون صاحبه ابداً ولو فقد ماله وحياته . وكم من مرّة رأينا الوجوه يسعون في طلب الحق للموكلين عليهم . والوجه لا يقوم باعباء ثقيلة الّا ليحفظ شرفه وينال صيتاً ومجداً بين اقرانه

ومما يدلّ على ان الوجه والكفيل هما كلمتان تدلّان على معنى واحد هو استعمالها بالمعنى الواحد . اذا باع امرؤ ارضاً أو فرساً او غيرهما من الاشياء يقول البائع للشاري: « ترى بعتُكَ بوجه فلان ان طلبتُها أدفع كذا عقاباً على ذنبي » . وكذلك الشاري يقول : « ترى اشتريتُ بوجه فلان ان ارجعتُها أدفع كذا عقاباً على ذنبي » . واذا تشاجر اثنان ثم تصالحا يقول الواحد لصاحبه : « ترى بوجه فلان تصالحنا ومن اضرّ قريبهُ لا يلوم الّا نفسه » . ومن اودع وديعة وخاف عليها من السرقة او من الاتلاف يقول للمؤتمن عليها : « ترى فلانٌ وجهٌ عليك » ومن تعدّى على صاحبه يجد أمامهُ اعداء كثيرين بسبب الوجه . لأنّ العشيرة كلها تقوم مع الوجه يداً واحدة فالوجه يكون حاضراً او غائباً كما بيّناه في مقالتنا السابقة . ومما يجب ذكره ان كل شيء يصير في البادية مشافهةً لا كتابةً ومع ذلك فانهم يحفظون العهود والمواثيق

ولا بدّ للوجه من بعض الصفات الحميدة كالكرم والشجاعة والوفاء والإقدام فهذه الصفات الاربعة تجعلهُ محبوباً رهيباً غيوراً على الحقّ والانصاف ماضياً في عزمهِ وافعالهِ . والوجه يكون اما من العشيرة نفسها او أجنبيّاً . فعلى اي صفة كان فهو مضطرّ بعواطف الشرف ان يقوم بواجبهِ . ومن كان اجنبياً تأخذه الحماسة والغيرة وتدفعهُ الى اعلى مراتب التفاني والحبّ لانه بذلك يبدي بسالتهُ ويذيع بافعالهِ ومآثرهِ بين عشيرتهِ

وكثيراً ما يكون الوجه عاجزاً وغير قادرٍ على النهوض بهمّتهِ فكيف يدافع عن المستجيرين به ؟ . فالامر ليس بصعب لان هذا الوجه الضعيف هو نفسهُ يتخذ له ولصاحبه وجيهاً هو أقدر على تمهيد العقبات واوسع سلطةً واشدّ بأساً على الصعبات فهذا الوجه الجديد يمدّ لهما يد المساعدة ويأخذهما تحت حمايتهِ

. . .

ومهما توفّرت المضايق في وجه الكفيل فلا يخلد الى اليأس والاحزان بل يتجشّم الاخطار ويقتحم الاسفار والمشقّات فيبذل كل نفس ونفيس لديه كي يصيب ما يتمنّاهُ من الرغائب والنتائج الحسنة فهكذا الكبير موكّل بالصغير فلا يدع احداً يهضم حقوقه او يفقدهُ مطلوبهُ . فمن هذا الباب نرى ان البادية اكثر شفقةً وحنوّاً من المدن . فالقوي يحترم الضعيف لانه يجد امامهُ مراقباً يراقب افعالهُ كلّها ومدافعاً

بطلاً واقفاً له بالمرصاد . فاذا تعدّى القوي على الضعيف وكان للضعيف وجه مشهور يلتجئ اليه ويقول له: « يا شيخ فلان قد صار الامر الفلاني بوجهك وخصمي فلان تعدّى عليّ وكسر وجهك فبيّض وجهك ووجهي » . فيجمع الوجه مجلساً مؤلفاً من القاضي البدوي والامراء المعروفين ويرسل رسلاً ليأتوا بالمعتدي . فيقصّ الوجه قصّتهُ الى الحاضرين والمجرم في اثناء ذلك راكع والعِقال في رقبته دلالةً على التذلّل والانسحاق ثم يحكم القاضي على الجاني بدفع ما عليه ويعاقبهُ بدفع عشرة خرفان للوجه او لصاحبه

ولقد يجدر بنا ان نذكر قوّة الوجه في الحروب الطاحنة . حينما يرى فريق المتحاربين انه قد كسر واندحر وخشي على نفسه من السيف يرمي بنفسه بين ايدي اعدائه ويقول للعقيد اي للقائد : « ياشيخ فلان نحن في وجهك » : فيقول لهم : « أبشروا بالعزّ والسلام » . فيكرمهم ويقدّم لهم ما يحتاجون اليه من الطعام ثم بعد اتمام الحرب او انتهاء الغزوة يرسلهم الى منازلهم قائلا : « احلفوا لي بالله وبرسوله انكم لا تبرقون ولا تخونون بل تعودون الى اوطانكم وتنشرون كرمنا او افضالنا » . فيعدونهُ بذلك ويرجعون الى ربوعهم مسرورين ولسانهم يثني على مخلّصهم من طائلة الموت

استودع صخريٌّ فرساً كحيلاء عند عجرميّ حتى يرجع فيأخذها . وصار ذلك برجه فوّاز شيخ بني صخر فغاب الصخري ايّاماً طوالاً ثمّ عاد يطلبها وكان العجرمي في اثناء ذلك قد باع الفرس فقال الصخري: « يا اخا العرب رُدَّ لي الفرس » . فقال: « هي هدية قدّمتها لي والآن تطلبها فاين شرفك واين كرمك » . فانصاع الصخري راجعاً واخبر الشيخ فوّاز بما جرى وقال : « انت الوجه في هذا الامر » . فركب فوّاز مطيّته وسار في معيته عشرة من الفرسان فطلب حق الوجه سبعين ريالاً وعشرين نعجة واستلم الفرس من مشتريها ورجع (١)

(١) قد ذكرنا في مقالتنا السابقة حكاية حسين الصبح وقدومهُ الى ابن قلاب طالباً حقّ الوجه من النصراني الذي ذبح ابنته . راجعها في محلّها (المشرق ١٢ : ٦٦٦)

٥ هو الدخيل

اذا تصفحنا معجم اللغة وجدنا ان الدخيل هو الضيف او المسافر الداخل تحت خيمة احد الاعراب لطلب الضيافة اياماً معلومة . على ان الدخيل عند العرب الحاليين هو الرجل المستجير الخائف من امر صعب سيدهمهُ او داهمهُ فيعمد الى شيخ كبير ويقول له : « انا دخيلك فاحمني وارحمني » فالضعيف يستغيث بالقوي ويطلب حمادُ فيقول له : « ستكون في اعز جوار وامنع ذمار » . فان المولى جلَّ جلالهُ وضع هذه القوة الفاعلة في البادية لصدّ هجمات الاعداء وحقن الدماء . فالدخيل يرتمي في خيمة الشيخ ويسترحمهُ بان ينجدهُ ويجيرهُ . وفي الليل يرتمي المستجير على فراش الاولاد ويهتف بصوت متقطع حزين : « انا بجضارك وموقد نارك . انا داخل عليك من السيف والخيف ومن فلان صاحب الحق الردي » . فيجيبه رب البيت : « أبشر بالعز والهناء والطيب » . ثم يبسط له سبب اعتصامه به فيقول له : « عش في ديارنا فرحاً بك » . ثم ينزع كوفيتهُ من على راسه ويضعها على راس الدخيل ويقول : « الله ورسول الله لا احد ينزع من راسك شعرة » . اي انه يحارب من حاربهُ وينازع من نازعهُ . لعمري لقد راينا مشهداً يفتت الاكباد حزناً رأينا مظاوماً راكعاً امام شيخ يذرف الدموع الغزيرة ويذكره بما فُطر عليه من الافضال وكرم الاخلاق ويستحلفهُ بآبائه واجداده واولاده الاطفال بان ينظر اليه بعين الحنو والشفقة . فرقَّ قلب الشيخ وقال له : « لقد عطفتَ احشائي عليك وفهمتُ امرك كن عندي على مهاد الراحة والصفاء الى ان يمنّ المولى عليك بالهناء التام » . فبهذا الكلام الرقيق قبل هذا المسكينَ دخيلاً عنده

حكى لي عودة بن عيسى عن جده فقال : ذبح جدّي اعرابياً وجلا عن بلاده ثلاثين سنة الى ان حنّت نفسهُ الى وطنه فامتطى ناقتهُ واتى في منتصف الليل الى مضارب الاعراب وكان عدوّهُ نائماً بين اولاده فارتمى القاتل على فراشه وقال : انا دخيلك . فقال : من انت . قال : دخيل عندك . قال : سلمتَ وعشت »

وحينما يقبل الشيخ الدخيلَ في منزله يرسل رسلاً الى عدوّ الدخيل وطالبهِ ويقول له : « ترى فلان دخيل في بيتي احذر ان تصيبه بأذى » . فيجيبه الرجل اطلب

خصمي الى القضاء . فيقول له : « أعطه عَطْوَة » . والعطوة هي هدنة من الزمان يمتنع فيها العدوّ عن الشرّ الى ما بعد المحاكمة . فهذه الهدنة لا يطول تأجيلها الى زمان بعيد فالصخور يمنحون العطوة لاسبوعين وبنو حسن لستين يوماً . ويختلف الزمان بحسب العشائر . فالدخيل حينئذٍ يثلج صدراً ويرتاح فكراً . لان حالته تؤثّر على حالة الاعراب كلّهم فالجميع هم خدم له ما دام دخيلاً عندهم . غير ان صاحب الدخلة يبعث وفوداً الى العدو ثلاث دفعات متوالية ويستحلفه بان يرعوي عن غيّه وينثني للحقّ امام القاضي فتارةً يستخدم الوعد والوعيد واخرى التوبيخ والتهديد فان أبى الّا الانتقام وأخذ الثأر بيده يجمع الامير فرسانه الشجعان ويقودهم الى منزل العدو فيسلبون ما يجدونه هناك من المواشي والغنم والخيل والبقر ويقودونها الى ارض قاحلة لا مرعى فيها . فيضطرُّ العدو اذ ذاك الى طلب المهادنة والمصالحة . واذا اصرّ على عناده تموت اغنامه ويصبح فقيراً ولا يقدر ان يطلبها من صاحب الدخلة لانه أبى الّا الانتقام . واذا سرقت ولم يتصالحا فلا يطالب بشيء . على ان الغبي حينما يرى نفسه في هذه الحالة لا يتأخر عن طلب الحق امام القاضي فيتصالحان ويعود الدخيل الى منزله (لها بقية)

التنبيه على اوهام ابي عليّ في اماليه

بقلم الاب انطون صالحاني اليسوعي

وقفنا على نسخة خطّيّة من كتاب التنبيه للبكري (١ ردّ فيه على اغلاط القالي في كتابه الامالي . فاحببنا ان نصفها لقرّاء المشرق وان نستفيد من بعض ما ورد فيها لتؤيّد ما قلناه في مقالتنا السابقة التي قرّظنا بها ديوان عمرو بن قميئة وأشرنا الى ما طرأ على الشعر العربيّ من الاختلافات

(١) كانت هذه النسخة مُلك جناب الاديب جرجس بك صفا وقد انتقلت بالبيع الى سعادة العالم الاديب احمد باشا تيمور . واليه انتقلت ايضاً نسخة نوادر ابي زيد الفريدة التي كان استعارها المرحوم الشيخ سعيد الخوري الشرتوني من جرجس بك ونشرها بالطبع في مطبعتنا وهي نسخة جليلة مضبوطة بالشكل الكامل